ناشيونال جيوغرافيك :

تجذّر الشعوب وتوطين الهوية الوطنية بين الباحثين واللاجئين

من الأنثروبولوجيا الثقافية 7، 1 (1992): 24-44

ليزا مالكي

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

كما أشارت الفيلسوفة الفرنسية سيمون فايل في الجملة الافتتاحية لكتاب ليزا مالكي "ناشيونال جيوغرافيك" ، **ثمة حاجة إنسانية عميقة للتعلق بالمكان** . وليس من قبيل الصدفة أن فايل كتبت هذا عام 1942 ، عندما كانت فرنسا (وجزء كبير من أوروبا الغربية) في خضم اضطرابات الحرب العالمية الثانية . إن أوقات الاضطرابات المتصاعدة والنزوح البشري ، الناجمة عن أحداث مثل الحروب ، تُسلّط الضوء على الأهمية العميقة للتجذّر لدى البشر. وبالطبع ، لا يوجد دليل على أن الارتباط بالمكان هو في الحقيقة مطلب أساسي للروح البشرية . قد تعرف جيدًا أشخاصًا يبدو أنهم يزدهرون بالحركة الدائمة - بل قد تعد نفسك بدويًا عصريًا . لذا ، ثمة نقاشٌ ما ، نقاشٌ يُفاقمه الطابع المتسارع للعولمة ، حول الحركة مقابل التجذر عندما يتعلق الأمر بمسائل الهوية والمجتمع والانتماء .

لا تحاول مالكي حسم هذا النقاش . بل تتناول مسألة اللاجئين ، لاستكشاف كيف تُسلّط شخصية المهاجر غير الطوعي الضوء على التوترات الثقافية المحيطة بالمكان والهوية . ولأننا نميل إلى استخدام استعارات نباتية ، كالجذور والأشجار تحديدًا ، لمناقشة ارتباط الناس بالمكان ، فإن حالة الاقتلاع تُعد قاتلة ، إن لم تكن حرفيًا في المعنى . يُفترض أن النازحين خارجون عن مكانهم بشكل غير طبيعي ، ومُخربين للنظام الأخلاقي والسياسي المُفترض استقراره ، وبالتالي فهم يُشكلون تهديدًا . يصح هذا بشكل خاص عند النظر إليه من منظور الدولة القومية وسلامتها المفترضة . في هذه الأوقات العالمية ، التي تتسم بالحركة المتزايدة للنازحين عبر الحدود الوطنية - ما أسماه المنظر الأدبي إدوارد سعيد "**حالة عامة من التشرد**" تصبح هذه الأسئلة أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى .

استكشفت جينيفر هيندمان مكانية اللجوء في كتابها "إدارة النزوح : اللاجئون وسياسات العمل الإنساني" (2000) . كما تناول جيل دولوز وفيليكس غواتاري الاستعارات العضوية في تمثيل الثقافة بإسهاب ، لا سيما في كتابهما "ألف هضبة : الرأسمالية والفصام" (1987) . تماشيًا مع أحد المواضيع الرئيسية في هذا الجزء ، تتساءل مالكي عن سبب استخفاف الكثيرين منا بمفهوم فضاء الأرض المُقسّم إلى دول مُنفصلة ، غالبًا ما تُصوَّر على أنها كتل ملونة من الأراضي مُتجاورة على خريطة أو في أطلس ؟ تجادل مالكي وآخرون بأن الدول ليست وحدات طبيعية ؛ بل هي كيانات مبنية اجتماعيًا بالكامل . وبالتالي ، نعلم أنها تُشارك بعمق في انعكاس وترسيخ علاقات القوة في المجتمع ، وكذلك في التنافس عليها . يُناقش بنديكت أندرسون البناء الاجتماعي للأماكن مُطولًا على نطاق الدولة القومية ، في كتابه "المجتمعات المُتخيلة : تأملات في... أصل وانتشار القومية (1983) ، وعلى نطاق أوسع في كتاب "أسطورة القارات : نقد الجغرافيا المكانية" لمارتن لويس وكارين ويجن (1997) .

ليزا مالكي أستاذة مشاركة في الأنثروبولوجيا بجامعة ستانفورد ، كاليفورنيا . ألفت كتابًا بعنوان "النقاء والمنفى : العنف والذاكرة وعلم الكونيات الوطني بين لاجئي الهوتو في تنزانيا" (1995) . تواصل

مالكي التركيز على مسائل الثقافة والهوية والأمة . تشمل اهتماماتها البحثية الحالية التدخلات الإنسانية وعمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر .

مقدمة

"ربما يكون التجذر أهم احتياجات النفس البشرية وأقلها إدراكًا" ، كتبت سيمون فايل في إنجلترا إبان الحرب عام ١٩٤٢. في عصرنا ، تُتيح الظروف الجديدة للبحث النظري في الأنثروبولوجيا ومجالات أخرى إعادة النظر في مسألة الجذور ، إن لم تكن مرتبطة بالنفس ، في علاقتها بالهوية ، وأشكال إقليميتها . ينطوي المفهوم المجازي للجذور على روابط وثيقة بين الإنسان والمكان - روابط يُعترف بها بشكل متزايد في الأنثروبولوجيا كمجالات يجب تحريف طبيعتها واستكشافها من جديد . ...تُصبح مفاهيم الأصل والمكان الأصليين معقدة للغاية مع تزايد عدد الأشخاص الذين يُعرّفون أنفسهم ، أو يُصنفون ، بالإشارة إلى "أوطان" و"ثقافات" و"أصول" مُجرّدة من الإقليم . لقد برز وعي جديد بالحقيقة الاجتماعية العالمية ، وهي **أن الناس ، الآن أكثر من أي وقت مضى ، يعيشون في تنقل مزمن ونزوح روتيني ، ويبتكرون ديارًا وأوطانًا في غياب قواعد إقليمية ووطنية - ليس في مواقعهم ، بل من خلال ذكرياتهم ومطالباتهم بأماكن لم يعودوا قادرين على سكنها جسديًا** .

لا شك أن المنفى وغيره من أشكال النزوح الإقليمي ليست ظواهر "ما بعد حداثية" حصرية . لطالما تنقل الناس - سواء بدافع الرغبة أو العنف . وقد كتب الباحثون أيضًا عن هذه الحركات لفترة طويلة ومن وجهات نظر متنوعة . المثير للاهتمام هو أن تحولات نظرية معينة قد رتبت نفسها في ظروف جديدة تمنح هذه الظواهر رؤية تحليلية أوسع نطاقًا ربما من أي وقت مضى . وهكذا ، لدينا... أسئلة قديمة ، ولكن لدينا أيضًا شيء جديد تمامًا . إن إدراك أن البشر أصبحوا بشكل متزايد "أهدافًا متحركة" للبحث الأنثروبولوجي يرتبط بوضع الحدود والمناطق الحدودية في مركز أطرنا التحليلية ، بدلًا من حصرها في نطاق غير مرئي . أطرافٌ أو مناطق خطر شاذة . غالبًا ما لا يعكس القلق بشأن الحدود وتجاوزها حركاتٍ جسدية لمجموعاتٍ محددة من الناس ، بل يعكس قلقًا واسعًا بشأن "النزوح الثقافي" للأشخاص والأشياء والمنتجات الثقافية . وهكذا ، يُنظر إلى ما يُطلق عليه [إدوارد] سعيد ، على سبيل المثال ، "**حالةً معممةً من التشرد**" على أنه يُميز الحياة المعاصرة في كل مكان .

في هذا المفترق النظري الجديد ، يُصبح فحص مكانة اللاجئين في النظام الوطني للأشياء تمرينًا توضيحيًا . فمن ناحية ، تُلقي محاولة فهم ظروف مجموعاتٍ مُحددة من اللاجئين الضوء على تعقيد الطرق التي يُنشئ بها الناس أماكن مُعينة ، ويتذكرونها ، ويدّعون ملكيتهم لها بكونها "أوطانًا" أو "أممًا" . من ناحية أخرى ، يُشير بحث كيفية تحول اللاجئين إلى موضوع للمعرفة والإدارة إلى أن نزوحهم يُشكل بشكل مختلف عن أشكال أخرى من نزع الطابع الإقليمي من قِبل الدول والمنظمات والباحثين المعنيين باللاجئين . وهنا، تُعدّ فئة اللاجئين المعاصرة فئةً غنيةً بالمعلومات في دراسة البناء الاجتماعي والسياسي للمكان .

يُمثّل الجزء الأكبر من هذه المقالة استكشافًا تخطيطيًا لطرق التفكير المُسلّم بها حول الهوية والإقليم ، والتي تنعكس في اللغة العادية ، وفي الخطابات القومية ، وفي الدراسات الأكاديمية حول الأمم والقومية واللاجئين . والغرض هنا هو لفت الانتباه إلى العواقب التحليلية لمثل هذه المفاهيم الإقليمية العميقة للهوية بالنسبة لفئات الأشخاص المصنفين على أنهم "نازحون" و"مُقتلعون من جذورهم" . سيتم بعد ذلك مقارنة هذه الآراء الأكاديمية بإيجاز شديد مع حالتين أخريين . أول هذه الدراسات مستمدة من بحث إثنوغرافي أُجري بين لاجئي الهوتو الذين عاشوا في مخيم للاجئين في ريف غرب تنزانيا منذ فرارهم من مجازر عام ١٩٧٢ في بوروندي . وسيُتتبع هذا البحث كيف تأثرت سرديات لاجئي المخيمات عن الوطن ، واللجوء ، والهجرة .

ويتحدى المنفى المفاهيم العلمية والحس السليم . في الحالة الثانية ، تنتقل الإثنوغرافيا بين لاجئي الهوتو في تنزانيا الذين عاشوا (أيضًا منذ عام ١٩٧٢) خارج مخيم للاجئين ، في بلدة كيغوما وما حولها على بحيرة تنجانيقا . يمثل هؤلاء "لاجئو المدن" كوكبة مفاهيمية ثالثة مختلفة من الروابط بين الناس والمكان والنزوح - كوكبة تقف في تناقض صارخ مع وجهات النظر من المخيم ، وتتحدى من جهة أخرى الخرائط العلمية للنظام الوطني للأشياء .

الخرائط والتربة

للبدء في فهم المعاني الشائعة المرتبطة بالنزوح و"الاقتلاع" في النظام الوطني المعاصر للأشياء ، من الضروري إرساء أسس معينة . وهذا يعني استكشاف الأفكار السليمة المشتركة على نطاق واسع حول البلدان والجذور والأمم والهويات الوطنية . يعني ذلك ، بعبارة أخرى ، التساؤل عن معنى أن تكون متجذرًا في مكان ما . تُدمج هذه الأفكار البديهية عن التربة والجذور والإقليم في اللغة اليومية ، وغالبًا ما تُدمج أيضًا في العمل الأكاديمي ، إلا أن وضوحها يجعلها بعيدة المنال كموضوعات للدراسة . وكما قال [كليفورد] غيرتز ، "تتجلى الفطرة السليمة أمام أعيننا بوضوح ، يكاد يكون من المستحيل رؤيتها" .

إن فكرة أن العالم يجب أن يتكون من وحدات ذات سيادة ، غير متصلة مكانيًا ، هي فرضية ضمنية أحيانًا ، ومعلنة أحيانًا أخرى ، في كثير من الأدبيات المتعلقة بالأمم والقومية... تشبه إلى حد كبير أي أطلس مدرسي يضم دولًا صفراء وخضراء ووردية وبرتقالية وزرقاء ، تُشكل خريطة عالمية حقيقية ، بلا مساحات غامضة أو "غامضة" ، ولا حدود فاصلة . عادةً ما يُعد النظام الوطني للأشياء... هو النظام الطبيعي أو العادي للأشياء . فمن البديهي أن الأمم "الحقيقية" ثابتة في المكان و"مُمَيَّزة" على الخريطة . لا يُمكن لدولة أن تكون دولة أخرى في الوقت نفسه . وهكذا ، يُنظر إلى عالم الأمم على أنه تقسيم مكاني مُنفصل للأراضي ؛ ويُقسّم إقليميًا على غرار الأطلس المدرسي متعدد الألوان . وإن الإقليمية المُعبَّر عنها في الأداة البصرية المفاهيمية للخريطة واضحة أيضًا (وربما بشكل خاص) على مستوى اللغة العادية .

يُشار إلى مصطلح "الأمة" عادةً في اللغة الإنجليزية (وفي العديد من اللغات الأخرى) بمرادفات مجازية مثل "البلد" و"الأرض" و"التربة" . على سبيل المثال ، يُمكن أن تُشير عبارة "البلد بأكمله" إلى جميع مواطني البلد أو كامل امتداده الإقليمي . وكلمة "أرض" لاحقة شائعة ، ليس فقط في كلمة "الوطن" ، بل أيضًا في أسماء البلدان (تايلاند ، سويسرا ، إنجلترا) وفي التسميات الاستعمارية القديمة "للشعوب والثقافات" (نويرلاند ، باسوتولاند ، نياسالاند) . أحد تعريفات "الأرض" في المعاجم هو "شعب بلد ما" ، كما في "الأرض التي ثارت" . وبالمثل ، غالبًا ما تُعرّف التربة بأنها "تربة وطنية" . هنا، تُصبح الأرض نفسها أكثر إنسانية .

تنعكس هذه الهوية المُتجذرة بين الشعب والمكان وتُخلق أيضًا في سياق ممارسات أخرى غير خطابية . فليس من غير المألوف أن يأخذ الشخص المُهاجر حفنة من التربة (أو شتلة ، أو بذورًا) من بلده ، تمامًا كما ليس من غير المألوف أن يُقبّل بطل وطني أو سياسي عائد الأرض عند وطء قدمه مرة أخرى على "التربة الوطنية" . تُعدّ مظاهر الروابط العاطفية بالأرض دليلاً على الولاء للوطن . وبالمثل ، تُنقل رماد أو جثث الأشخاص الذين قضوا على أرض أجنبية بشكل روتيني إلى "أوطانهم" ، إلى الأرض التي تنمو فيها شجرة نسب أسلافهم . رماد إلى رماد ، تراب إلى تراب : في الموت أيضًا ، للتربة الأصلية أو الوطنية أهمية .

تُوظّف الممارسات المجازية القوية التي تربط الناس بالمكان عادةً لفهم الحالة الشاذة تمامًا للأشخاص الذين تُعد مطالباتهم بالتربة الوطنية وارتباطاتهم بها واهية أو زائفة أو معدومة ، والتصرف بناءً عليها . ولعلّه في هذا السياق ينبغي وضع أحداث كاربنترا ، جنوب فرنسا . في ليلة 9 مايو/أيار 1990، دُنِّس 37 قبرًا

في مقبرة يهودية قديمة ، ونُبش جثمان رجل دُفن حديثًا وعُلِّقَ بمظلة . يُضطر المرء إلى رؤية ارتباط هذا العمل العنيف البغيض بـ"حب الوطن" بأبشع معانيه . حُرم الرجل العجوز من عضوية الأمة الفرنسية لأنه كان ينتمي إلى فئة "اليهود " . كان شخصًا يعيش في أرض "غير مناسبة" ، ولذلك أُخرج من هذه الأرض .

الجذور و شجرة الثقافة

تشير الأمثلة السابقة بالفعل إلى أن الافتراضات المنطقية الشائعة التي تربط الناس بالمكان ، والأمة بالأرض ، ليست مجرد... إقليمية ، لكنها ميتافيزيقية بعمق . وللبدء في فهم معنى النزوح في هذا النظام من الأشياء ، من الضروري استكشاف جوانب أخرى من الميتافيزيقيا . الهدف من هذا القسم هو إظهار أن تطبيع الروابط بين الناس والمكان يُفهم عادةً في استعارات نباتية محددة . أي أن الناس غالبًا ما يُنظر إليهم ، ويفكرون في أنفسهم ، على أنهم متجذرون في المكان ويستمدون هويتهم من هذا التجذر . الجذور المقصودة هنا ليست مجرد أي نوع من الجذور ؛ غالبًا ما تكون شجرية الشكل . حتى رحلة قصيرة إلى الخطابات والصور القومية تُظهر أنها مجال غني بشكل خاص لاستكشاف مثل هذه الاستعارات الجذرية الشجرية...

ولكن على نطاق أوسع ، فإن استعارات القرابة (الوطن الأم ، الوطن الأم ، الوطن الأم ، الوطن الأم) واستعارات الوطن الأم (الوطن الأم ، الوطن الأم ، الوطن الأم) تُضفي أيضًا طابعًا إقليميًا بالمعنى نفسه... فالوطن الأم والوطن الأم ، إلى جانب دلالاتهما التاريخية الأخر ى ، يوحيان بأن كل أمة شجرة نسب عظيمة ، متجذرة في التربة التي تغذيها . وهذا يعني ضمناً **أنه من المستحيل أن تكون جزءًا من أكثر من شجرة واحدة** . فهذه الشجرة تستحضر الاستمرارية الزمنية للجوهر والتجذر الإقليمي . وبالطبع ، ليس التفكير من منظور الجذور الشجرية حكرًا على القوميين . فكثيرًا ما يُصوّر العلماء أيضًا الهوية والقومية بهذه المصطلحات تحديدًا... قد يتخذ التفكير في الأمم والهويات الوطنية شكل الجذور، والأشجار، والأصول ، والأنساب ، والخطوط العرقية ، والانتماءات المحلية ، والتطورات ، أو أي عدد آخر من الصور المألوفة الجوهرية ؛ ما تشترك فيه هو شكل فكري نسبي ، يتميز بطابعه الشجري الغريب...

الحاجة إلى الجذور والاحتجاز المكاني للأصلي

هناك نوعان من الصلة بين مفهوم الأمة والمفهوم الأنثروبولوجي للثقافة مهمان هنا . **أولًا** ، يُشبه الترتيب المفاهيمي للخريطة "الجغرافية الوطنية" الطريقة التي غالبًا ما يُصوّر بها علماء الأنثروبولوجيا الترتيب المكاني "للشعوب والثقافات" . يرتبط هذا التشابه بالطرق التي نميل بها إلى تصور الفضاء بشكل عام . هذا التقسيم المكاني مُدمجٌ أيضًا في منظور النسبية الثقافية التي جعلت العالم يبدو كحدائق ثقافية تفصل بينها قيمٌ تحافظ على الحدود... ولا تنعكس الممارسة المفاهيمية للتقسيم المكاني في سرديات "التنوع الثقافي" فحسب ، بل تنعكس أيضًا في الاحتفاء الدولي بالتنوع في "أسرة الأمم" .

وهناك مجموعة **ثانية** من الروابط ذات الصلة بين الأمة والثقافة ، وهي ميتافيزيقية أكثر وضوحًا . ويتعلق الأمر بحقيقة **أن الثقافة ، مثل الأمة ، لطالما عدت شيئًا موجودًا في "التربة"** . وقد ساهمت مصطلحات مثل "أصلي" و"أصلي" و"أصيل" في ترسيخ الثقافات في التربة ؛ ومن الملاحظات الشائعة أن مصطلح "ثقافة" مشتق من الكلمة اللاتينية التي تعني "زراعة" . هنا ، تُعدّ الثقافة والأمة مفهومين متقاربين : فهما ليسا مكانيين فحسب ، بل إقليميين أيضًا ؛ فكلاهما يعتمد على جوهرية ثقافية تتخذ بسهولة أشكالًا شجرية . ويمكن إيجاد وسيلة فعّالة لفهم كيفية إقليمية "الثقافات" في... الطرق التي مال بها علماء الأنثروبولوجيا إلى ربط الناس بالأماكن من خلال نسب وضعهم الأصلي...

ويعمل الحبس المكاني للأصلي... من خلال نسب ليس فقط الثبات المادي ، ولكن أيضًا ثبات بيئي واضح . ويُعتقد أن السكان الأصليين متكيفون بشكل مثالي مع بيئاتهم - علماء ملموسون مثيرون للإعجاب يكشفون بصمت ومهارة عن الجوانب الخفية لأنظمتهم البيئية الخاصة ، على غرار برنامج تلفزيوني...هذه الطرق لحصر الناس في أماكنهم لها أبعاد ميتافيزيقية وأخلاقية عميقة . يمكن النظر إلى الجمود البيئي للسكان الأصليين... في سياق خلط أوسع بين الثقافة والشعب ، والأمة والطبيعة - خلطٌ ساجن ، ولكنه أيضًا بطولي ورومانسي للغاية...

في حرم جامعي معين في أمريكا الشمالية ، طلبت لجنة حركة العمل من أجل الغابات المطيرة (RAM) المعنية بالشعوب الأصلية من أعضاء هيئة تدريس الأنثروبولوجيا الإعلان في فصولهم الدراسية عن أن "الفترة من 21 إلى 28 أكتوبر هي الأسبوع العالمي للغابات المطيرة . ستفتتح حركة العمل من أجل الغابات المطيرة الأسبوع بوقفة احتجاجية بالشموع من أجل الشعوب الأصلية" . (يُدرج المنشور أيضًا أنشطة أخرى : مسيرة في وسط المدينة ، ومحاضرة "عن الشعوب الأصلية" ، وفيلم) . أحدنا ، بالطبع ، متعاطف مع مشروع الدفاع عن... الغابات المطيرة وسكانها ، في مواجهة تهديدات جسيمة . ليس القصد التقليل من أهمية أو إنكار ضرورة التنظيم السياسي فوق الوطني حول هذه القضايا . ومع ذلك ، فإن هذه الأنشطة نيابةً عن "السكان الأصليين" ، بأشكالها الثقافية المحددة ، تثير عددًا من التساؤلات : لماذا يُنظر إلى حقوق "السكان الأصليين" على أنها قضية "بيئية" ؟ هل "جذور" الناس في تربتهم الأصلية أكثر طبيعية بطريقة ما ، وحقوقهم أكثر قدسية بطريقة ما ، من حقوق غيرهم من الشعوب المُستغلة والمضطهدة ؟ ويتساءل المرء ، إذا أراد "شخص أصلي" الرحيل ، إلى مدينة ، فهل ستنطفئ شمعته ؟ إن إملاءات الجمود البيئي تُلقي بثقلها هنا .

ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك يحدث مع "يوم الشعوب الأصلية" . إن تجمع الناس في بلدة صغيرة بأمريكا الشمالية لإقامة وقفة احتجاجية على ضوء الشموع من أجل أناس آخرين لا يُعرفون إلا باسم "السكان الأصليين" ، يوحي بأن كون المرء أصليًا ، أو مواطنًا محليًا ، أو من السكان الأصليين ، أو متجذرًا في مكانه ، هو في الواقع أمرٌ يُمجَّد بقوة . في الوقت نفسه ، من الصعب ألا نرى أن هذه البطولة ذاتها - دمج الناس البعيدين مع غاباتهم - قد يكون لها تأثيرٌ في إضفاء طابع حيواني خفي ، بينما تُضفي عليه طابعًا روحانيًا . ومثل "الحياة البرية" ، يُعدّ السكان الأصليون موضوعًا للبحث والخيال ، ليس فقط لعالم الأنثروبولوجيا ، ولكن أيضًا لعالم الطبيعة ، والمدافع عن البيئة ، والسائح . **عندما يكون المواطن الأصلي مواطنًا وطنيًا ، يصبح التقييم الميتافيزيقي والأخلاقي للجذور في التربة جليًا بشكل خاص** . ففي النظام الوطني للأشياء ، لا يُعدّ تجذّر الشعوب أمرًا طبيعيًا فحسب ؛ بل يُنظر إليه أيضًا على أنه حاجة أخلاقية وروحية... .

ميتافيزيقيا الاستيطان

ترتبط المفاهيم الإقليمية ، والشجرية في كثير من الأحيان ، للأمة والثقافة التي نستكشفها هنا بنزعة استيطانية قوية في تفكيرنا... هذه نزعة استيطانية تُمكّن بشكل خاص من بلورة وترسيخ جغرافيا وطنية تُعيد تأكيد تقسيم العالم إلى وحدات منشورية ، متنافية فيما بينها ، من "نظام عالمي" . وهي أيضًا نزعة استيطانية تُعد أمرًا مسلمًا به لدرجة أنها تكاد تكون غير مرئية . وأخيرًا ، هذه نزعة استيطانية عميقة الميتافيزيقية وأخلاقية ، تُغرق "الشعوب" و"الثقافات" في "الترب الوطنية" ، و"أسرة الأمم" في أمنا الأرض . هذا السياق الثقافي العابر للحدود الوطنية هو ما يُوضح الروابط بين النزعات الدولية الاحتفالية المعاصرة والنزعات البيئية... .

الاقتلاع: بعض آثار الاستقرار على تصور النزوح إن تصور علاقات الناس بالأماكن من خلال المصطلحات الطبيعية والنباتية الموصوفة أعلاه يؤدي ، إذن ، إلى استقرار غريب ينعكس في اللغة والممارسة الاجتماعية . هذا الاستقرار ليس خاملاً ، بل يُضفي طابعًا إقليميًا نشطًا على هوياتنا ، سواء أكانت ثقافية أم وطنية . وكما سيحاول هذا القسم توضيحه ، فإنه يُمكّن بشكل مباشر من رؤية النزوح الإقليمي على أنه مرضي . الهدف الأوسع هنا هو الإشارة إلى أنه في مواجهة النزوح ، تتجلى الميتافيزيقيا الاستقرارية المضمنة في النظام الوطني للأشياء في أبهى صورها .

ويتضح أن النزوح يخضع للفكر النباتي من خلال التباين بين مصطلحين شائعين له : الزرع والاقتلاع . مفهوم الزرع أقل تحديدًا من الأخير، ولكن يُمكن الاتفاق على أنه يُشير عمومًا إلى جذور حية وقابلة للحياة . فهو يُشير بقوة ، على سبيل المثال ، إلى فئة "المغتربين" في الحقبة الاستعمارية وما بعد الاستعمارية ، والذين عادةً ما يكونون مُتميزين ، والذين يلتقطون جذورهم بطريقة مُنظمة من "الوطن الأم" ، أي منابع الثقافة الأصلية ، ويشرعون في "تأقلمهم" في "البيئة الأجنبية" أو على "أرض أجنبية" - مرة أخرى ، بطريقة مُنظمة . أما الاقتلاع من الجذور، فهو مسألة أخرى .

حتى نظرة عامة موجزة على الأدبيات المُتعلقة باللاجئين كأشخاص مُقتلعين من جذورهم تُظهر أنه في الاقتلاع ، يختفي نظام الزرع . بدلًا من ذلك ، تسود الجذور المُتصدعة والمتدلية - جذور مُهددة بالذبول ، إلى جانب الولاءات الاعتيادية للمواطنة في الوطن . يمكن أن يتخذ إضفاء طابع مرضي على الاقتلاع من الجذور في النظام الوطني للأمور أشكالًا مختلفة (ولكنها غالبًا ما تكون متداخلة) ، من بينها أشكال سياسية وطبية وأخلاقية . بعد الحرب العالمية الثانية، وكذلك في فترة ما بين الحربين ، غالبًا ما عُرف فقدان الوطن الوطني ، الذي يتجسد في اللاجئين ، بأنه من قِبل صانعي السياسات والباحثين في ذلك الوقت كمشكلة سياسية أخلاقية . على سبيل المثال ، ورد في دراسة تاريخية بارزة أجريت عام ١٩٣٩ عن اللاجئين : "بسبب اقتلاعهم سياسيًا ، قد يغرق [اللاجئ] في عالم الإرهاب والجريمة السياسية ؛ وفي جميع الأحوال ، يُشتبه في عدم مسؤوليته السياسية التي تُهدد الأمن القومي" . ومع ذلك ، فإن المحور الأخلاقي هو الذي أثبت أنه الأكثر ديمومة في إشكالية اللاجئين... النقطة التي يجب التأكيد عليها هنا هي أن فقدان هؤلاء اللاجئين للصلة الجسدية بأوطانهم الوطنية أصبح يُعامل على أنه فقدان للقيم الأخلاقية . فبفقدانهم جذورهم ، لم يعودوا جديرين بالثقة كـ"مواطنين أمناء" .

لم يختف موضوع الانهيار الأخلاقي من دراسة المنفى والنزوح... يختلف مجال "دراسات اللاجئين" المعاصر اختلافًا جذريًا في روحه عن أدبيات ما بعد الحرب . ومع ذلك ، فهو يشترك مع النصوص السابقة في فرضية أن اللاجئين بالضرورة "مشكلة " . فهم ليسوا أشخاصًا عاديين ، بل يمثلون ، بالأحرى ، شذوذًا يتطلب تصحيحات متخصصة وتدخلات علاجية . ومن اللافت للنظر أن الأدبيات الوفيرة التي تزعم أن اللاجئين موضوع دراستها ، غالبًا ما تُحدد "المشكلة" ليس في الظروف أو العمليات السياسية التي تُنتج نزوحًا إقليميًا جماعيًا للناس ، بل في أجساد وعقول (وحتى أرواح) الأشخاص المصنفين كلاجئين . من الواضح أن الفكرة هنا ليست إنكار أن النزوح يمكن أن يكون تجربة مُحطمة . بل هي : إن افتراضاتنا المستقرة حول التعلق بالمكان تقودنا إلى تعريف النزوح ليس كحقيقة تتعلق بالسياق الاجتماعي والسياسي ، بل كحالة مرضية داخلية للنازحين .

مواطنون ومواطنون عالميون في المنفى... يستند هذا العمل إلى عام كامل من البحث الميداني الأنثروبولوجي في ريف غرب تنزانيا بين لاجئي الهوتو الذين فروا من مجازر الإبادة الجماعية عام ١٩٧٢ في بوروندي ، ويستكشف كيف تُشكل التجارب المعاشة في المنفى بناء الهوية الوطنية والتاريخية بين

مجموعتين . أمةٌ مُنزَعَةٌ عن الانتماء الإقليمي ، بلا جذورٍ مُتأصلةٍ في التراب الوطني . في الواقع ، لم تُصبح هذه الإقليم ترابًا وطنيًا بعد ، لأن الأمة لم يُستَعِدْها "أعضاؤها الحقيقيون" بعد ، بل يُحكَمُها "المُحتالون"... لقد أعادت أمة الهوتو توطين نفسها تحديدًا في النزوح ، في مُخيَّم للاجئين . الوطن هنا ليس كيانًا إقليميًا أو طبوغرافيًا بقدر ما هو وجهةٌ أخلاقية . والعودة الجماعية المثالية إلى الوطن ليست مُجرَّد سفر . فالعودة الحقيقية لا يُمكن أن تأتي إلا في ذروة المحن والشدائد في المنفى .

تتحدى هذه الرؤى للأمة والهوية والنزوح المنطقَ السليم والآراءَ العلمية التي نوقشت في القسم الأول من هذه المقالة ، ليس بدحض النظام الوطني للأشياء ، بل ببناء ميتافيزيقا قومية بديلة مُنافسة . يُزعم أن الدولة والإقليم لا يكفيان لبناء أمة ، وأن المواطنة لا تُعدّ انتماءً حقيقيًا . وهكذا... تُعد بوروندي "محتالة" في "أسرة الأمم" . في المقابل ، لم يُنشئ لاجئو المدن هوية جماعية متميزة كهذه . فبدلاً من تعريف أنفسهم جماعيًا بأنهم "لاجئو الهوتو" ، مالوا إلى البحث عن سبل لاستيعاب الهويات المتعددة والتلاعب بها - هويات مُشتقة أو "مُستعارة" من السياق الاجتماعي للمدينة .

لم يكن لاجئو المدن بالضرورة "هوتو" أو "لاجئين" أو "تنزانيين" أو "بوروندييين" ، بل كانوا مجرد "أشخاص واسعي الأفق" . كانت هوياتهم مُتأصلة ، جذرية - متغيرة ومرتبطة بالظروف بدلًا من أن تكون جوهرية وأخلاقية . في عملية إدارة هذه الهويات "المتأصلة" في حياة البلدة ، لم يُنشئوا هوية وطنية مُمَثَّلة ، بل كوزموبوليتانية حيوية - دنيوية جعلت لاجئي المخيمات ينظرون إليهم كعنصر "غير نقي" وإشكالي في "المجتمع الكلي" للاجئي الهوتو كـ"شعب" في المنفى . بالنسبة للكثيرين في المدينة ، كانت العودة إلى الوطن تعني السفر إلى بوروندي ، إلى مكان مُحدَّد مكانيًا . لم يكن المنفى مسارًا أخلاقيًا ، ولم يكن الوطن وجهة أخلاقية ، بل مجرد مكان . في الواقع ، غالبًا ما بدا من غير اللائق عد لاجئي البلدة في المنفى على الإطلاق

كان الكثير منهم غير متأكدين مما إذا كانوا سيعودون إلى بوروندي يومًا ما ، حتى لو سمحت التغيرات السياسية بذلك في المستقبل . ولكن الأهم من ذلك ، أنهم خلقوا حياةً تُشبه ظروف كيغوما الحالية ، لا ظروف الماضي في بوروندي . كانت تصورات لاجئي المدن لظروفهم المعيشية وماضيهم مختلفة عن الميتافيزيقيا الوطنية للاجئي المخيمات وعن الفطرة السليمة للعلماء . في الواقع ، لقد فككوا الميتافيزيقيا الوطنية برفضهم رسم الخرائط ورفضهم التام لاستفسارات الأصل . وبدلاً من ذلك ، تحدوا بقوة الماهوية الثقافية والوطنية ؛ ونزعوا صفة الطبيعية عن المساعي العلمية والسياحية وغيرها من المساعي نحو "الأصالة" التي تنطوي على تجارة جماعية في الهويات "المزيفة" و"المغشوشة" ؛ وأخيرًا ، قللوا من أهمية ضرورة العيش في ظل قوميات راديكالية .

الخلاصة

الأمة - بما لها من ارتباطات قوية بمناطق وأقاليم معينة - هي في الوقت نفسه شكل ثقافي فوق محلي وعابر للحدود الوطنية . في هذا السياق ، تكتسب مفاهيم العلاقات بين الناس والمكان بسهولة جوانب من الاستقرارية الميتافيزيقية الموصوفة هنا . هذه العلاقات الطبيعية هي ما حاولت هذه المقالة تسليط الضوء عليها وتحليلها من خلال مقارنة ثلاثية الأبعاد بين الحس السليم للاستقرارية ، والهوتو في مخيم اللاجئين ، واللاجئين الكوزموبوليتانيين في كيغوما . تُبرز هذه الأمثلة الإثنوغرافية مدى اضطراب "الهوية" كأداة مفاهيمية ، حتى بعد أن استُخرجت منها الماهية الأوضح . مرارًا وتكرارًا ، تظهر الهوية كـ"جوهر أصيل"، كـ"نتاج خالص" للتربة الثقافية ، والوطنية ، التي يُعتقد أنها تستمد منها طبيعتها وقوتها .

إن رؤية العديد من الناس (بمن فيهم الباحثون) للهوية من خلال عدسة الماهية هذه هي حقيقة ثقافية وسياسية يجب إدراكها . لكن هذا لا يعني أن أدواتنا التحليلية يجب أن تتخذ هذا الشكل . فالمعارضتان

الرئيسيتان في هذه المقالة – أولاً ، بين الاستقرار والنزوح بشكل عام ، وثانياً ، بين "المواطنين" و"العالميين" في المنفى في تنزانيا - تُشيران إلى مفاهيم بديلة . تُشيران إلى **أن الهوية دائمًا ما تكون متحركة وعملية ، فهي جزئيًا بناء ذاتي ، وجزئيًا تصنيف من قِبل الآخرين، وجزئيًا حالة ، ومكانة ، وعلامة ، وسلاح ، ودرع ، ومخزون من الذكريات ، وما إلى ذلك .**

إنها مجموعة مُكرولة مُكوّنة من خلال أعمال يدوية . احتفل لاجئو المخيمات بـ"نقاء" مطلق ، بينما احتفل لاجئو المدن بـ"نجاسة" عالمية . لكن كلا النوعين من الهوية كانا جذريين ، كما هي الحال مع أي هوية ، ولن يكون من الدقة الإثنوغرافية دراسة هذه الهوية كمجرد تقريب أو تحريف لـ"جذور حقيقية" مثالية . مع ملاحظة أن المزيد والمزيد من سكان العالم يعيشون في "حالة عامة من التشرد" - أو أن هناك حاجة فكرية حقيقية لـ"علم اجتماع جديد للنزوح" ، أو "علم ترحال" جديد - لا يعني إنكار أهمية المكان في بناء الهويات . بل على العكس ، وكما حاولت هذه المقالة إظهاره... فإنّ نزع **الإقليمية والهوية مرتبطان ارتباطًا وثيقًا**... إن التركيز على "أماكن الميلاد" ودرجات الانتماء إلى الوطن فقط هو غضّ البصر عن تعدد التعلقات التي يُكوّنها الناس بالأماكن من خلال العيش فيها ، وتذكّرها ، وتخيّلها .